مونتكومري وآراؤه التربوية

مقالة من تأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

رحمه اللّه تعالى

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة الوعي الاسلامي الكويتية- العدد رقم 78 -
السنة 7 – 1391هـ-1971م - ص 38-44

1391 هـ - 1971 م

مونتكومري وآراؤه التربوية

مقالة من تأليف

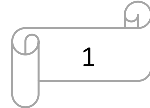
اللواء الركن محمود شيت خطاب

رحمه الله تعالى

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة الوعي الاسلامي الكويتية- العدد رقم 78 - السنة 7 – 1391هـ-1971م - ص 38-44

1391 هـ - 1971 م



- 1 -

المشـــير مونتكومري قائد بريطاني، من أبرز قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (1939 ـــ 1945) وقد لمع اسمه لأول مرة بعد انتصـــاره على جيوش المحور في معركة (العلمين) سنة (1942)، فأصبح معروفا في العالم كله.

بدأ حياته العسكرية العلمية برتبة ملازم في الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918)، ثم تدرج في الرتب العسكرية، وتولى المناصـب القيادية ومناصـب الأركان وأصـبح معلماً في كلية الأركان البريطانية في (كامبرلى) وهو منصب تعليمي تربوي مرموق.

وفي أواخر الحرب العالمية الثانية أصبح قائد مجموعة جيوش مؤلفة من مختلف الأســـلحة، كان تعدادها يناهز المليونين من الجنود وضباط الصف والضباط والمراتب الأخرى.

وبعد الحرب العالمية الثانية تسنم منصب رئيس هيئة أركان الحرب في بريطانيا، ثم تســـنم منصـــب نائب القائد الأعلى للحلف الأطلسي.

وأخيرا أصــبح عضــوا في مجلس اللوردات البريطاني إذ منح لقب: «لورد العلمين»، فتفرغ لواجبه في هذا المجلس، وعكف على التأليف، وأصبحت هوايته توجيه الشباب ورعايتهم.

وقد أمضــى في الخدمة العســكرية نحو خمســين ســنة، ربى خلالها ما لا يعد ولا يحصــى من العســكريين معلما ومدربا ومثقفا ومحاضرا وقائدا.

وقد ســجل في آخر مؤلفاته: (الســبيل إلى القيادة) عصــارة تجاربه في تربية الأطفال وتوجيه الشــباب وهو يرعى في الوقت الحاضــر جماعة من الشــباب، ويجد لذة ومتعة في توجيههم ، ويرى في ذلك خدمةً لوطنه وتطبيقاً لمبادئه التربوية.

وسـأذكر ما أورده في كتابه هذا عن التربية ، لعل فيها فائدة للـذين لا يرضــخون إلا لآراء الغربيين والـذين لا تطربهم مغنيّة الحيّ، وتشــفى عيونهم رمال الغرب ، وتدميها ورود بلدهم، و يســتســلمون للأجنبي ولا يســالمون العربي أو المسلم، بهرتهم حضارة الغرب لأنهم يجهلون حضارة أمتهم واستحوذ عليهم الاستعمار الفكري البغيض.

إلى هؤلاء أسـوق آراء مونتكومري التربوية، تلك الآراء التي لو سـمعوها من عربي مسـلم لكالوا له التهم جُزافاً ولرموه بالتخلف والرجعية!!

ترى! ماذا سيقول هؤلاء عن آراء مونتكومري التربوية؟

ـ 2 ـ

عقد مونتكومري في كتابه «السـبيل إلى القيادة» باباً كاملا هو الباب الحادي عشر بعنوان: «قيادة الشبيبة» استغرق نحو ثلاثين صفحة من كتابه، ولا أرى مسوغاً لعرض آرائه التربوية كافة لأنني لا أريد أن أطيل فأثقل على القارئ، ولكنني سـأعرض مختصـر آرائه لإعطاء فكرة كاملة عنها، وهذا يقتضـيني أن أكثّف تلك الآراء بعيداً عن الإيجاز المخلّ والإطناب المملّ.

يـذكر مونتكومري أن أولاد أمتـه لا نقص فيهم من حيـث المادة أو النوع ولكن الخطأ في أسلوب تربيتهم مما أدى إلى أن يصـبحوا دون المسـتوى المطلوب، وهذا خطأ المربين لا خطأ الشباب.

ثم قال: «إنني غير راضٍ عن شباب اليوم»(1).

ويمتدح بنات جيله فيقول: «إن البنات لم يكن ليسمح لهن بالخروج من البيت وحدهن والذهاب مع الأولاد إلى المراقص وغيرها»(2)، وبذلك ينتقد مر النقد ما يراه من ترك الأبوين بناتهم يسرحن ويمرحن كما يشأن دون رقيب أو حسيب.

ويقول عن تربية الأطفال وتنشئتهم ليكونوا عناصر مفيدة للمجتمع: (إن ولد اليوم وهو رجل المستقبل يجب أن يكون الغرض من تربيته بناء سجيته، ليتسنى له عندما يحين الوقت المناسب أن يؤثر في الآخرين إلى ما فيه الخير. وهناك أمر يجب ألا نخطئ فيه، وهو أن أسس (السجية) يجب أن توضع في البيت، بل إن التربية الأساسية يجب أن تبدأ هناك، فهذه التربية هي التي تؤثر في الولد وتوجهه طيلة حياته، أما على الخير أو إلى الشر. وعلى أسس الخير القويمة التي تبنى في البيت، سيبنى المعلم (سجية) الولد عندما يأتي إلى المدرسة، فلا يستطيع المعلم أو أي شخص آخر أن يفعل شيئا في هذا الصدد. إننا نسمع اليوم الكثير عن: (آثام الأحداث) التي لاشك أن السبب الرئيسي لأغلبها هو إهمال الآباء.

«إن تجربتي الشخصية تحملني على الاعتقاد بأن الأسس لبناء السجية يجب أن تغرس في الولد عندما يصبح في السادسة

من عمره، وأهم ما فيها التمييز بين خطأ والصواب والتحلي بالصدق والمروءة»(3)

ويرثى مونتكومري لحال البشرية التي أصبحت تلهث وراء (المادة) وتبتعد عن (الروح) فيقول: ألسنا نعيش جميعاً في ضباب من خداع النفس، في عالم تستحوذ عليه (المادية) وتنبذ فيه القيم الروحية؟!

«فلنفكر مثلا في نماذج الإعلانات الكثيرة التي تواجهنا أنى ذهبنا، والتي تؤثر في كثير من الناس فهي توحي إلينا أن حل كل مشكلة يمكن أن يشتري بالمال. إنها تقول مثلا: أتنشد السعادة في بيتك إذن فاشترِ هذه المكنسة الكهربائية أو ذلك النوع من طعام الفطور، أو هذا الصابون، أو اشرب تلك الجعة! ولا شك أن الناس جميعا لا ينخدعون بهذه الإعلانات الكثيرة، ولكن الولد المراهق يتعرض للخطر وهو يعيش في هذا الضباب من خداع النفس (ماذا ينفع الإنسان، لو حصل على الدنيا كلها، وأضاع روحه)(4)...»(5).

هكذا يستشهد مونتكومري بآيات من الإنجيل لتأييد آرائه، فكم من قادتنا من يستشهد بآيات من الذكر الحكيم؟

ويضيف مونتكومري: «إذا أردنا أن يجتاز العالم بسلام وتعقل حالة الهياج والاضطراب التي تسوده اليوم، فينبغي أن نحيا

الحياة الحقة ونقتدي بالمسيح عليه السلام، بدلا من الخبط في دياجير الظلام»(6).

إنه ينصح بالاقتداء بالمسيح، وهذا طبيعي لأنه مسيحي، فكن من رجالنا من ينصح علناً وبكل قوة العرب والمسلمين بالاقتداء بالنبي صلى اللّه عليه وسلم.

ويقول: «وهكذا نرى مدى الصعوبة التي يجابهها أولاد اليوم، وجسامة (الواجب) الذي يجابهه الآباء والمعلمون في تفسير كل ذلك لهم وتوجيههم نحو الصراط المستقيم. وقد زادت المهمة صعوبة زيادة كبيرة من جراء أحوال الحياة العصرية ـ الحياة التي يواجه فيها الأولاد مغريات ومشاكل أعظم من تلك التي واجهها أي واحد منا عندما كنا شبابا. فالأشياء المثيرة، وأفلام العصابات والبيوت المخربة بسبب التهاون في الواجبات الزوجية ونشر القضايا الجنسية في بعض الصحف، كل هذه تفرض على الولد المراهق ضغطا شديدا، وليس من السهل أن ننمي (السجية) في ظروف كهذه»(7).

ونحن!! لماذا نستورد أفلام العصابات؟ لماذا نسمح للصحف والمجلات بنشر القضايا الجنسية لماذا نعرض الأفلام الخليعة والتمثيليات الداعرة في الإذاعة المرئية؟ ألأجل أن نخرب بيوتنا بأيدينا؟ ألأجل أن نشيع الفاحشة في أولادنا؟! ألأجل أن تتصاعد نسبة الرسوب في مدارسنا وكلياتنا؟ لماذا؟!

- 3 -

ويمضـــي مونتكومري بالحث على تلقين الأطفال التعاليم الدينية فيقول: «لقد سبق أن ذكرت كلمة (الضبط). إن لهذه الكلمة صــدى غير مســتحب عند فريق من الناس، وربما كان الســبب هو لأنها غير مفهومة فهماً صــحيحاً. إن الأســاس الحقيقي للضــبط هو ضــبط النفس، وهو الســيطرة على النفس وكبح جماحها، وأن يعيش المرء حياة، منظمة ومقيدة بقيود اختيارية يفرضــها على نفســه، وقد نعد هذه القيود بمثابة واجبات ينبغي أن تشعر بضرورة القيام بها.

«إن مفهوم الواجب هذا يؤكد أهمية التعاليم الدينية التي تتعلق بالســيرة الشــخصــية للإنســان، ويجب أن يوحي بهذه التعاليم إلى كل طفل حالم يبدأ بالذهاب إلى الروضــة (يريد روضــة الأطفال التي تســبق المدرســة الابتدائية) وينبغي أن يتم ذلك حتما قبل بلوغه السنة السادسة من عمره»(8).

ويتساءل مونتكومري: «فما هو غرضنا»؟ ويجيب: «إن الغرض هو أن نبث في صفوف الشبيبة الاستقامة والشجاعة الأدبية، الحمية، بغية إقامة حصــن يتحدى المؤثرات المخربة التي تسعى إلى تحطيم أخلاق أولادنا. وينبغي تربية هؤلاء ليكونوا (نقاطا قوية) في الأمة، تدافع عن الأمانة وســط مغريات تحرض على الخيانة، وتدافع عن العمل الجماعي والإخلاص،

وعن الجهد الصادق وشعور الواجب الرفيع، عن كل شيء فيه خير البلاد»(9).

ثم يقول: أين يجب أن يبدأ التعليم؟ في البيت طبعاً، فذلك هو المكان الذي يجب أن يبدأ فيه تكوين (السجية). ويجب أن يتعلم الطفل في البيت أموراً معينة تعد خطأ وأخرى تعد صواباً، ويجب أن يتعلم الأمانة والإخلاص والصدق والثبات على ما يعتقده صوابا وحقاً ثباتاً را سخاً برغم ما يواجهه من إغراء وجب أن تبدأ أسس هذه التربية في وقت مبكر وأن ترسخ في ذهن الطفل عندما يبلغ السادسة من عمره، حتى إذا ما بدأ بالذهاب إلى المدرسة لا يكون فريسة لتأثيرات شريرة قد يواجهها»(10).

ثم ينعى مونتكومري عل العالم تخليه عن «المثل العليا»، ويتوجه إلى قومه البريطانيين برأيه صريحاً واضحاً: «لكي نخدم بريطانيا ونفخر بأننا بريطانيون ليس من الضروري أن نملك قنابل ذرية بقدر ما تملكه الولايات المتحدة الأمريكية أو علماء بقدر ما تملكه روسيا، فليست البلاد التي تنقصها القنابل الذرية أو القوات الكبرى هي التي يجب أن تدعى (دولة من الدرجة الثانية)، بل ينبغي أن يطلق ذلك على البلاد التي تعوزها المثل العليا، وهذه المثل تبقى وغيرها

يفنى». ثم قال: «إن أول ما نحتاج إليه، هو معالجة الجهل المتفشي بيننا عن الحقائق الأولية للدين»(11).

- 4 -

ووصف مونتكومري آراءه التربوية التي تؤدي إلى إعداد قادة المستقبل ورجال الأمة فقال: «وقد لا تكون آرائي مقبولة على العموم، لكنها بسيطة على الأقل، وقد بنيت على (مثل عليا) وحقائق أزلية، لن تتغير مهما كان العصر الذي نعيش فيه»(12).

ثم يكرر ما قاله سابقاً بأسلوب جديد، أكثر وضوحاً وتفصيلاً فيقول: إني من المؤمنين إيماناً راسخاً بوجوب توجيه الشباب نحو «العلا» ويجب أن نوضح لهم ما يجب أن يفعلوه لبلوغ ذلك، وأن نبين لهم السبب. إن ذلك لأمر مهم، لأن المستقبل هو للشباب، فهم الذين يجب أن يستلموا المشعل هنا إن مهمتنا أن نوحي إلى الشباب أن يستهدفوا غرضاً «أخلاقياً» عاماً مبدئياً على إيمان واعٍ قوي بالدين. فإذا استطعنا بعدها أن نوحد شبابنا وراء قادة يهتمون بهذا الدين كما يهتم الشيوعيون بعقيدتهم، فما من شيء نخشاه: لا الأعداء ولا المشكلات الاقتصادية، إذ يمكن التغلب عليهما معا. إن أهم ما في التربية ــ وفي الحياة كذلك ــ هو أن يكون لدى الطفل أو الشباب إحساس بالغرض قوي إلى

درجة تمكنه من مواجهة الصعاب والتغلب عليها. إن غرضا كهذا لا يمكن أن يبنى إلا على (عقيدة)، ولا يمكن تنمية هذه العقيدة إلا في زمن الصبا لكنه يجب أن تكون هذه (العقيدة) حسنة، فالعقيدة السيئة هي السبب في معظم ما نعانيه اليوم من اضطرابات 13.

ويعتبر مونتكومري تضايل الطفل أو الشاب أخلاقيا من أعظم الجرائم فيقول: «سئلت ذات مرة عن رأيي في أسوأ جريمة يمكن أن يرتكبها أي إنسان؟ فأجبت بدون تردد: تضليل طفل أو شاب أخلاقيا!

«وأضفت إلى ذلك قولي: ما من عقوبة تعد قاسية بحقٍّ إنسان كهذا»(13). ومن الواضح أن رأي مكونتكومري هذا سليم إلى أبعد الحدود، لأن الذي يضلل طفلا أو شاباً أخلاقياً، سية ضي على م صدر الخير فيه، و سيجعل منه بؤرة للفساد والشر، إذ سيكون عاملاً من عوامل إشاعة الفساد والشر، يهدم ولا يبني، ويفسد ولا يصلح، ويخرب ولا يعمر.

إن الوالدين اللذين لا يربيان طفلهما تربية سليمة يضللان طفلهما ويحرمانه من ومضات النور والخير.

والمعلم الذي لا يعلم تلميذه تعليما ناجعا، يضلل تلميذه ويفسد طبعه ويوجهه نحو الجهل والضياع.

فكم من أب أو أم ضللا طفلهما عن عمد بإهمالهما تربيته أو عن غير عمد لجهلهما التربية السديدة.

وكم من معلم ضلل تلميذه لكسله أو جهله أو عدم تقديره المسؤولية الملقاة على عاتقه، فأصبح ذلك التلميذ مشرداً، أو لصاً أو قاتلاً أو تافهاً.

- 5 -

ويعود مونتكومري إلى تلخيص آرائه التربوية فيقول: ما هي النصيحة التي أقدمها للشباب كيف يستطيعون إحراز مجد الفتوة؟ إنني أقدم إليهم الوصايا الأربع التالية:

أولاً: ليكن لديك شيء من رزانة الفكر! ان ذلك لا يعني أن الطفل أو الشباب لا يجب أن يكون سعيدا نبيها، بل بالعكس. ولكن أنبه الناس هو من كان ذا بصيرة، وقلب بسيط، وضمير طاهر ومن يحاول قلبيا وبكل تواضع التمسك الشديد بتعاليم الدين.

«إن الملذات التي لا نهاية لها، والفرص الضائعة والامتيازات التي يساء الاستفادة منها ــ كل هذه الأمور لا تعوض عن ضياع الفضيلة، وفقدان الرجولة وعدم احترام النفس.

ثانياً: أوصى بالطاعة، تلك الفضيلة التي يبنى عليها السلطان، وهي تعني قبول قانون (الواجب) قانونا للحياة. إن اللّه سبحانه وتعالى يفوض شيئا من سلطته إلى إخواننا البشر منذ السنين الأولى من حياتنا يفوضه أولاً إلى أبوينا، ومن ثم إلى الذين يولون علينا، فاحترام السلطة إذن واجب مقدس كما هو أمر إلهي، وما من عصر انتهكت فيه حرمة هذا الأمر إلا وساد فيه الفساد. إن آمال الأمم تتعلق بإخلاص أبنائها وتواضعهم وفي طاعة شبيبتها واحترامهم لمن هو أكثر منهم سنا.

«ثالثاً: أوصى بالجد والمثابرة، فالوقت المتيسر للعمل والدراسة قصير وسن الصبا سرعان ما يمر من غير أن نشعر به إلى دور الشباب فدور الرجولة.

«رابعاً: لقد تعلمت في حياتي الخاصة، أن صفات ثلاثة ضرورية للنجاح: العمل الشاق، والاستقامة المطلقة، والشجاعة الأدبية، وهي تعني عدم خوف الإنسان من قول ما يعتقده صوابا والثبات على هذا الاعتقاد(14).

ولا يكتفي مونتكومري بهذا الباب من كتابه للحديث عن: (آرائه التربوية)، بل يعود ثانية في الباب الخامس عشر إلى عرض آرائه في التربية فيقول: «بالإضافة إلى تزويد المدارس بنظام تربوي جيد، وبمعلمين ماهرين، يجب أن يتيسر فيها نظام سليم للتدريس الديني بالتعاون مع رجال الدين»(15).

ثم يقول عن أثر المثال الشخصي الذي هو التطبيق العملي للنظريات التربوية: «والواقع أن التربية الفكرية والخلقية التي نزود بها أولادنا، هي ليست بذاتها أهم الأمور، بل المهم هو ما سيفعلونه بهذه التربية، والفائدة التي سيجنونها منها في السنين القادمة. ومن الواجب تخصيص قسم من هذه التربية لغرس الصفات التي هي جزء لا يتجزأ من القيادة الجيدة ويجب أن يقوم بذلك خيرة المعلمين الذين يمكن أن نحصل عليهم، وأن يقوموا به بالمثال الشخصي الحسن الذي يضربونه بأنفسهم لتلاميذهم وطلابهم»(16).

وفي ختام كتابه قال مونتكومري: «عندما أنظر إلى عالمكم اليوم، ينتابني القلق أحيانا على الجيل الجديد، عندهم مغريات لم نحصل عليها أنا وأنت(17). ويبدو أنهم

ينضـــجون مبكرا، ولكن ذلك يجري في عالم غير مأمون، وهم يميلون إلى أن يجعلوا للأمور (المادية) قيمة كبيرة ويهملوا (القيم الروحية) على الشـــباب أن يتســـلح جيدا بـالشـــعور (الروحي) إذا أراد ألا ينحرف أو أراد ألا يجرفه التيار..

«إن (الحرية الحقيقية، هي أن يكون لديك الخيار في أن تفعل ما (يجب) أن تفعله لا ما (تريد) أن تفعله إن هذه هي الحقيقة بعينها التي تواجه أي ولد، وهي التوفيق بين ما (يريد) أن يفعله وبين ما يوحي إليه ضميره أن يفعله»(18).

تلك هي موجز آراء مونتكومري في (التربية المثالية) أعرضها للذين يتلقون الوحي من الأجنبي، ويؤمنون بما يقوله دون مناقشة.

أما الذين يعرفون ما ورد عن: (التربية المثالية) في تراثنا العربي الإسلامي، العظيم، والذين درسوا هذا التراث بإمعان من منابعه الأصـــيلة، فيعلمون أن آراء مونتكومري تعتبر تافهة عند موازنتها بآراء السلف الصالح من علمائنا الأبرار.

وبكل صـــراحة وأمانة، أذكر أنني نقلت آراء مونتكومري في التربية مضـــطرا وبعد تردد طويل ولكن ما حيلتي مع الذين تستهويهم آراء الأجانب ولا تستهويهم آراء الأقارب؟؟!!

على كل، فإن العلم لا وطن له، وباستطاعة من يشاء أن ينقل ما يشاء من علوم الآخرين وآرائهم، على أن تكون تلك الآراء مفيدة وبناءة.

ولكن رأيي الذي أومن به، هو أن العربي المسلم إذا وجد في تراثه ما يتفوق على تراث الأجانب أو يشابهه، فلا ينبغي أن يغمط حق آبائه وإخوته ليستورد من الأبعدين، أو يتباهى بأقوال الأجانب ويتنكر لأقوال قومه وبني عقيدته.

إننا بحاجة إلى علوم الغرب، ولكننا لسنا بحاجة إلى مبادئه.

ومرة أخرى..

لو أبدى عربي مسلم مثل آراء مونتكومري في التربية فماذا يقول عنه أبناء جلدته المحدثون؟!

إن الإسلام أقوم المبادئ التي تبني الرجال والنساء وهو دين الخلق الكريم والفضية والعزة والمجد والسؤدد.

فمتى يعرف قيمة هذا الدين أبناؤه من العرب والمسلمين؟؟ متى؟؟

[الهوامش]

(1) السبيل إلى القيادة 191، 192.

(2) السبيل إلى لقيادة 193.

(3) السبيل إلى القيادة 194.

(4) آية من آيات الإنجيل... ترى! كم من قادتنا يستشهدون بآيات من الذكر الحكيم؟!

(5) السبيل إلى القيادة 195.

(6) السبيل إلى القيادة 196.

(7) السبيل إلى القيادة 197.

(8) السبيل إلى القيادة 197.

(9) السبيل إلى القيادة 198.

(10) السبيل إلى القيادة 198 – 199.

(11) السبيل إلى القيادة 205.

(12) السبيل إلى القيادة 211.

(14) السبيل إلى القيادة 215.

(15) السبيل إلى القيادة 217.

(16) السبيل إلى القيادة291.

(17) السبيل إلى القيادة 292.

(18) يقصد الناس من جيله.

(19) السبيل إلى القيادة 307 – 308.

مجلة الوعي الإسلامي، السنة السابعة، جمادى الآخرة 1391 - العدد 78